الباحث عن الشهادة

البراء بن مالك

رضي الله عنه

استمر في البحث عن شيء يرضي الله
ويكتب لك الجنة .. ولا تيأس

« لا أكاد أصدق ».

نطق بها البراء بن مالك في دهشة وفرح ليس لهما حدود، لأخيه أنس الذي لاحقه بحماس قائلا:

- بل صدق، لقد سمعت رسول الله ﷺ بأذني هاتين يقولها..

« رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، لوأقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك..».

وجلس البراء الشاب الفقير البسيط ، يتأمل كلمات رسول الله ﷺ عنه ، ويرددها في نفسه مرات ومرات، يستعذب حلاوتها وجمالها..

« لوأقسم على الله لأبره ».

من يحلم بذلك ؟ ومن يستطيع أن ينال هذا الشرف ؟

لقد نال البراء هذا الشرف؛ لأنه كان شابا حالما مشتاقا..

ولقد ظل طول حياته حالما مشتاقا..

ولم يكن حلمه واشتياقه لفتاة جميلة يتزوجها، أو منصب رفيع يصل إليه .

إنما كان حلمه أبعد من ذلك.. وأرقى من ذلك.. وأعظم من ذلك.

الشهادة.

نعم الشهادة.

كانت هي حلم البراء في النوم واليقظة..

كان يترقب الغزوات ويسأل عن المعارك ويتغنى بالجهاد في سبيل الله.

وفي كل مرة كان يخرج لغزوة، يشعر أنه يذهب لعرسه الذي اشتاق إليه منذ زمن بعيد.

إلا أنه لم يجد العرس منصوبا في بدر..

ولم تقع عليه عيناه في أحد..

وبحث عنه في الأحزاب، فلم يجده.

ولم يكن للبراء من بد إلا أن ينتظر..

اشترك في كل غزوة، وألقى بجسده في كل معركة شاهرا سيفه متحديا الأبطال والفرسان، مستفزا لهم أن يمنحوه ضربة سيف قاتلة مميتة.

إلا أنه لم يجد الشخص القادر على ذلك.

كان البراء مقاتلا شرسا من نوع فريد يرهب من يبارزه، حتى يوقن أنه من الحظ السيئ أن يلاقي في المعركة مقاتلا مثله.

كانت شجاعته وإقدامه ولهفته على الشهادة في سبيل الله، تصل به إلى الحد الذي دفع عمر بن الخطاب، ألا يجعله قائدا على الجنود؛ لأنه كان يخشى أن يدخل معهم في مغامرة مهلكة.

ومع ذلك فهو لا ينال الشهادة..

كان الأمر في بعض الأحيان مثيرا للحيرة والتساؤل بالنسبة له..

لماذا تأخرت الشهادة كل هذا التأخير ؟!

لماذا تهرب منه، وهو يطاردها في كل معركة ؟!

إلا أنه رغم تفكير البراء الذي أجهده كثيرا، لم يكن البراء يعرف الحكمة الأثيرة، وقانون الجهاد الخالد الذي أطلقه أبو بكر الصديق في السنة الحادية عشرة من الهجرة:

« احرصوا على الموت..توهب لكم الحياة ».

كانت تلك الكلمات البسيطة الموجزة العميقة الجامعة المانعة، هي وصية أبي بكر الصديق لجيش المسلمين الذاهب إلى معركة من أشرس معارك الردة.

معركة اليمامة.. وجيش مسيلمة الكذاب.

كان البراء بن مالك يطبق تلك الحكمة الخالدة دون أن يدري، قبل أن ينطق بها أبو بكر بسنوات.

إلا أنه في اليمامة، طبقها بفدائية لم يسبق لها مثيل.

كانت المعركة شرسة إلى أبعد حد، وكان جيش مسيلمة قويا بصورة خرجت عن توقعات المسلمين، وأصابتهم بالذهول بعد أن اهتزوا اهتزازة عنيفة في بداية المعركة، ألقت بالخوف والفزع في قلوبهم.

كان الشهداء يتساقطون واحدا تلوالآخر، ودماء الأبرار تسيل في كل مكان، والقلق يتزايد إلى أقصى درجة.

وهنا.. أدرك خالد بن الوليد قائد المسلمين خطورة الأمر، وقرر أن يقوم بحملة سريعة لرفع الروح المعنوية بين جنوده، وتنظيم صفوفهم لبدء جولة أخرى ناجحة.

وكان بديهيا أن يختار خالد أبطالا من نوعية خاصة، لا يهتزون أمام مثل هذه المواقف، ليوكل إليهم مهمة تحميس الجنود.

وكان بديهيا أن يكون من بينهم المقاتل الشرس.. البراء بن مالك.

والتفت خالد بن الوليد إلى البراء بن مالك وسط هول المعركة، لينادي فيه بأعلى صوته:

- تكلم يا براء.. تكلم.

وانطلق البراء وسط الجنود، وانطلق معه الحماس والإخلاص يتحدث على لسانه بكل ما أوتي

من قوة وهو يقول:

- يا أهل المدينة..

لا مدينة لكم اليوم..

إنما هوالله.. والجنة.

وظل البراء يرددها حتى وعاها المقاتلون جيدا..

لا مدينة لكم اليوم..الله والجنة..

يا أهل المدينة ..الموقف في غاية الخطورة، وإن لم تنتبهوا فلن تكون لكم مدينة بعد اليوم..

والحل الوحيد ألا تفكروا في العودة إلى المدينة..فكروا فقط في شيء واحد..

الشهادة..

نفس طموح البراء، نقله بحماسه إلى الجنود، فأصبحوا سهاما تشق صفوف أعدائهم، وأخذت السيوف تحصد من جيش مسيلمة يمينا ويسارا، حتى بدأت الدفة تتجه لصالح المسلمين، وتدور الدائرة على جيش مسيلمة العنيد.

وأمام حماس المسلمين وشراستهم، لم يجد جيش مسيلمة بدا من أن يتقهقر ويحتمي بحديقة ثم يغلق أبوابها.

وهنا وقف المسلمون يفكرون..

كيف يقتحمون الحديقة وهي مترسة الأبواب، وعشرات الجنود الشداد خلفها يمنعون فتحها بكل قوتهم.

ووقف المسلمون والأفكار تدور في رؤوسهم، دون أن تهتدي إلى حيلة لحل المشكلة.

إلا أن البراء بن مالك كان قد وجد الحل فعلا..

وكان حلا خطيرا..

ورهيبا.

* * *

« احملوني والقوني عليهم في الحديقة ».

صاح بها البراء بن مالك في إصرار وتحد لمن حوله من الجنود، عندها نظر إليه أحدهم قائلا في دهشة:

- ماذا تقول يا براء؟ إن هذا يعني موتك لا محالة، ونحن نحتاجك في هذا القتال الشرس.

نظر إليه البراء قائلا في حدة:

- ومن أين يأتي هذا القتال الشرس، إن لم تفتحوا هذه الأبواب ؟

واستمر الجدال، والذي رأى البراء معه أنه لن يجدي نفعا.

وبإصرار على الشهادة لا يعرف له حدود، صعد البراء بنفسه على سور الحديقة، وبكل ما يملك من قوة، ألقى بنفسه داخل الحديقة على جنود مسيلمة.

كانت الخطة تهدف إلى أن يحدث البراء بقفزته المفاجئة التي لم يتوقعها أحد، خلخلة في منطقة ما وراء باب الحديقة، فتمكن المسلمين من فتحه بضربة قوية.

وكان المنطق يقول أيضا: إن البراء لابد أن يكون ضحية تلك المغامرة لا محالة.

الجميع توقع ذلك..

المسلمون.. والبراء نفسه.

إلا أن ما حدث كان خارج كل التوقعات..

لقد سقط البراء بن مالك وسط مئات الجنود من المشركين وأخذ يبارزهم وحده، وتلقى في سبيل ذلك أكثر من ثمانين طعنة، ونجح المسلمون فعلا في اقتحام الحديقة والانتصار على المرتدين.

ويا للمفاجأة..

لم يكتب الله للبراء الشهادة..

ولا زال البراء يبحث عنها دون جدوى .

وجلس البراء في فراشه حزينا يداوي جراحه ويواسي نفسه..

وعندما زاره أصحابه، قرأ في عيونهم ما أرادوا أن يقولوه، فقال لهم في ثقة:

- لعلكم ترهبون أن أموت على فراشي..

لا والله، لن يحرمني ربي الشهادة.

لقد فعل البراء كل شيء من أجل أن ينال جزاء الشهيد، إلا أنه في كل مرة حرص فيها على الموت، كانت تكتب له الحياة.

إلا أنه لم ييأس؛ ولن ييأس؛ لأن لديه سلاحا فعالا يعلم على وجه اليقين أنه سلاح نافذ لا محالة، ويعلم معه أنه لا يفصله عن تحقيق حلمه إلا الوقت.. والوقت فقط.

إنه سلاح الدعاء..

أعطاه له حديث الرسول ﷺ عنه:

« لوأقسم على الله لأبره ».

ولقد دعا البراء.. وألح في الدعاء.

وشيئا فشيئا.. بدأت الشهادة تقترب في إحدى المعارك الشرسة في العراق مع الفرس...

لقد بدأت تقترب بالفعل..

وبشدة.

* * *

« أنقذني يا براء».

صرخ بها أنس بن مالك وهو يتأوه من ألم شديد، من جراء خطاف اشتبك في جسده في معركة شرسة مع الفرس في العراق.

كان السلاح الذي استخدمه الفرس في هذه المعركة سلاحا بشعا لم يعرفه المسلمون من قبل..

لقد استخدم الفرس في حربهم ضد المسلمين سلاسل ملتهبة تنتهي بخطاطيف يلقونها على المسلمين، فيقع المحارب وهو يصرخ صريعا لآلام رهيبة.

وكان البراء وأخوه أنس بن مالك في مجموعة واحدة كانت مهمتها اقتحام أحد حصون قرية اقترب المسلمون من السيطرة عليها ، وبمجرد أن سمع البراء استغاثة أخيه، حتى هرع إليه مسرعا، وبدون تفكير، أمسك البراء بالسلاسل الملتهبة وأخذ يفكها من حول أخيه أنس، متحملا ألما رهيبا في يديه، حتى نجح أخيرا في إنقاذه.

وعندها.. شهق أنس شهقة عميقة في ذهول بعد ما رآه..

فقد نظر إلى كفي أخيه البراء .. ليجد اللحم قد سقط عنهما تماما، ولم يبق منهما إلا هيكل عظمي محترق.

بطولة فذة وشجاعة نادرة وتضحية غير عادية.

ولا يزال البراء يبحث عن الشهادة.

ولازالت الشهادة تقترب..

وتقترب.

* * *

موقعة « تستر »..

الفرس مرة أخرى، ومعهم جيش من الأهواز..

ومعركة شرسة أخرى، جعلت عمر بن الخطاب يخاطب عمرو بن العاص بالكوفة، بأن يرسل جيشا بقيادة سهل بن عدي، ووضع هذه المرة نائبا له هو البراء بن مالك.

وفي نفس الوقت بعث إلى أبي موسى الأشعري في البصرة ليرسل جيشا آخر.

ويلتقي جيش الكوفة مع جيش البصرة، لتبدأ حرب عنيفة مع عدو شرس.

وبدأ القتال.. ليشهد الجميع مهارة نادرة في القتال، وجسارة أذهلت جيش الفرس والمسلمين على السواء، كان صاحبها مقاتل اسمه..البراء بن مالك .

كان البراء يشق الصفوف في براعة نادرة، وهو يعمل سيفه في جسدهم بخفة يحسد عليها، حتى إنه استطاع أن يحصد أكثر من مائة نفس.

واشتدت المعركة..

وسقط القتلى بكثرة من الفريقين..

ودخل القلق قلوب المسلمين، وكانوا بحاجة ماسة إلى الدعاء..

واقترب الصحابة حول رجل لوأقسم على الله لأبره ..

البراء بن مالك.

وهتف أحدهم قائلا في حماسة:

- أتذكر يا براء قول الرسول ﷺ عنك؟

ولاحقه آخر:

- يا براء.. أقسم على ربك، ليهزمهم وينصرنا.

وبكل التضرع والخشوع والإخلاص، رفع البراء يديه إلى السماء وهو يقول:

- اللهم امنحنا أكتافهم..

اللهم اهزمهم..

وانصرنا عليهم..

وألحقني اليوم بنبيك ﷺ.

واستجاب الله للبراء بنصر المسلمين، بعد استبسال غير عادي منهم في القتال.

إلا أن دعوة أخرى عزيزة إلى قلب البراء، كان ينتظرها سنوات طويلة..

استجابها الله له أيضا..

«وألحقني اليوم بنبيك ﷺ».

أخيرا..كتب الله للبراء الشهادة، مع ضربة سيف أعلنت العرس الموعود.

أخيرا هدأ البراء، وابتسم ابتسامة الشوق لله ولرسوله ﷺ..

وألقي البراء نظرة أخيرة على أصحابه.. قبل أن يغمض عينيه للمرة الأخيرة.

ليراهم بعد ذلك في يوم موعود..

وفي لقاء قريب.

دروس وتحليل

١- من عدل الإسلام أنه يقيم الناس حسب التقوى والإخلاص والعمل، لا حسب المال والسلطة والنفوذ والشكل (الرسول ﷺ يقول عن البراء بن مالك: رب أشعث أغبر، لوأقسم على الله لأبره).

كثير من السود في الولايات المتحدة الأمريكية، والدول التى يعانون فيها من التفرقة العنصرية، يعتنقون الإسلام بعد معرفته معرفة حقيقية بفترة قصيرة، وأشد ما يدفعهم إلى الإسلام، نظرة الإسلام إلى البشر التى لا تعتمد على لون أو جنس، فهو يحترم البشر، كل البشر، ويصون كرامتهم ويقدر المجتهد ويعاقب المقصر والمخطئ، دون محاباة على أساس من المال أوالنفوذ أوالسلطة.

وعندما يعتنق السود الإسلام، يشعرون بالفارق الشاسع بين حياة العنصرية وحياة الإسلام، ويدركون أن دين الإسلام دين عظيم.. قادر أن يسود العالم، لو كان له رجال.

إن الإسلام يضع إكسير التقدم في الحياة عند المسلمين؛ لأنه يخاطب فيهم الشخصية لا الاسم، ولا يهمه الشكل أوالصورة، إنما يعنيه العمل والجهد والإخلاص.

٢- أحلام الشباب وتطلعاته هي التي تحدد أحلام الأمة وتطلعاتها (كان البراء دائم الحلم بالشهادة في سبيل الله).

كان حلم البراء وكثير من المسلمين هوالشهادة في سبيل الله، فلقد رأوا الدنيا رحلة قصيرة ، واختبارا محدود المدة، وكان كل أملهم أن يجتازوه بنجاح إلى الحياة المستقرة الأبدية في جنات النعيم.

كانت تطلعات الشباب حينها هي نصرة الإسلام ورفعة الدين وعزة الأمة، فأسسوا الدولة، ونصروا الدين وفتحوا العالم..

واليوم..أصبحت تطلعات الشباب هى كل ما له صلة بالترفيه والحياة السهلة، وأصبحت الأهداف الكبرى التى تتصل برفعة الوطن ونصرة الدين، نوعا من الثقافة الزائدة التي يجب التخلص منها، وأن الأولى التفرغ للحياة التي نعيشها..

وهو ما انعكس على حال الأمة الإسلامية، التى تستطيع أن تتجمع على مباراة كرة، ليلتهب فيها الدعاء إلى الله بالنصر فيها، ولكنها تفشل أن تتجمع على قرار واحد يوحدها ويرد إليها كرامتها وحقها المسلوب، أو يضعها على أول طريق التقدم والنهضة.

٣- نداء البراء للمسلمين في معركة اليمامة : الله والجنة، يعكس فكر وفلسفة المسلمين في الحياة (البراء ينادي لتحميس الجنود في معركة اليمامة قائلا: الله والجنة).

عندما يريد شخص ما أن يحمس إنسانا لعمل ما، يفكر في الشيء الذي يحبه والذي يعيش من أجله ويحلم به، ليكون دافعا قويا له للعمل والإخلاص، ولقد كانت فكرة الجنة هي محور الحياة عند

المسلمين الأوائل، وكان إرضاء الله هوالغاية التى تدور حولها الأقوال والأفعال، وحلم الفوز في الآخرة هوالهدف الأسمى الذي يعيشون من أجله، من هنا كان اختيار كلمات البراء موفقة في تحميس الجنود نحوالقتال إلى أقصى حد.

وعندما يكون محور حياة المسلم هو إرضاء الله للفوز بالجنة، تسمو حياة الإنسان وترتفع قيمتها وترتفع معه قيمة الوطن وشأن الأمة، ويفتح لها الطريق لتنال كرامتها وعزتها.

وعندما يكون محور حياة الشباب السعى وراء وسائل الترفيه من أغاني وسمر وأفلام ومباريات ومال...إلخ. تقل قيمة الفرد أمام نفسه، وتضعف قيمة الوطن أمامه، بعد أن ضعفت صلته بالله، وأصبحت صلته بالدنيا أقوى وأقوى.

اجعل محور حياتك إرضاء الله..واجعل هدفك الأسمى هوالفوز بالجنة.

٤- المسلم عليه ألا يفكر كيف يعيش فقط، بل عليه أن يفكر كيف يموت أيضا (البراء كان حزينا لأنه قد يموت على فراشه).

في الآية الكريمة: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

توضح الآية أنه ينبغى على المسلم أن تكون حياته ومماته لله، وإذا كان مفهوما كيف تكون حياة الإنسان في سبيل الله، وذلك بأن يجعل المرء أعماله -سواء التعبدية من صلاة وصيام وصدقة وعمل خير..إلخ أو أعماله الحياتية مثل الزواج والتربية وعلاقاته الاجتماعية- موجهة لإرضاء الله وطمعا في ثوابه، أولا وقبل كل شيء.

ولكن.. كيف يكون الموت لله إذن ؟

إن الموت لله يعنى أن يتمنى المسلم الشهادة في سبيل الله، وهذه الأمنية سارية على مر العصور حتى في أوقات السلم؛ ولذلك لم يجعل الله الشهادة مقصورة على القتال في سبيله فقط، بل جعلها لمن مات وهو في طلب العلم ، ومن يقتل وهو يدافع عن أهله أو ماله أوعرضه، وحتى الذي يتوفى في حوادث مثل الغرق، أو من تهدم عليه بناء، أو من مات بسبب مرض أصابه في بطنه[١]. وإن لم يحدث كل هذا، فتكفي نيته الصادقة في الموت شهيدا كي ينال الشهادة ، حتى وإن مات على فراشه[٢].

إن الإسلام يريد أن يجعل المسلم متعلقا بالشهادة طوال حياته، حتى يظل متعلقا بالآخرة طوال

---

(١) روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:«الشهداء خمسة: المطعون، والمبطون، والغريق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله».

المطعون: الذي يموت بسبب وباء عام.

المبطون: من مات بسبب مرض أصابه في بطنه كإسهال واستسقاء أو غيرهما.

صاحب الهدم: الذي يموت تحت الهدم.

(٢) توفى القائد العظيم خالد بن الوليد على فراشه، وهوالذي خاض العديد من المعارك، إلا أنه نال الشهادة بنيته الصادقة المخلصة في الموت شهيدا في سبيل الله.

الوقت، فلا تأخذه الحياة الدنيا الزائلة، عن الدار الآخرة الباقية، ويظل يعمل في الدنيا وهو يزنها بميزان الآخرة، فلا تدخل الدنيا قلبه مهما بلغ من منصب أو جاه، ومهما حصل على مال، فلا يصبح في القلب مهما عصفت به الدنيا أو علت، إلا شيء واحد فقط...الله.

٥- سلاح الدعاء سلاح قوى فعال، إذا ما توافر فيه الصدق والإخلاص، إلى جانب العمل الجاد (المسلمون يطلبون من البراء أن يدعو الله في موقعة تستر، مصداقا لمقولة الرسول ﷺ عنه).

يذكر التاريخ أن المسلمين عندما يعتزون بقوتهم، ويظنون أن الأسباب وحدها كفيلة بالنصر، تنالهم الهزيمة، وعندما يتخذون ما يستطيعون من أسباب، ويتوجهون إلى الله بدعائهم بإخلاص ليكتب لهم النصر، لا يخذلهم الله أبدا.

إن الحضارة الإسلامية لا تقوم لها قائمة إلا على ساعدين: العمل الجاد والتوكل على الله.. بقلوب مخلصة تقية، موصولة بالله وتحرص على رضاه.ولقد حاولت الكثير من الأنظمة أن تتبع النموذج الغربي في المنطقة العربية، النموذج المادي الذي يفصل الدين عن حياة الناس، ويسبب للحياة العامة انفصاما عجيبا في الشخصية، فلا تستطيع تحديد هوية ولا شكل للدولة أوالنظام، لتكون النتيجة في النهاية الفشل الذريع في كل المجالات.. الاقتصادية والعسكرية والاجتماعية وحتى الرياضية.

ومع ذلك.. كانت تجارب العرب مع العمل الجاد والتوكل على الله لها نتائج مبهرة، مثلما حدث في حرب أكتوبر ١٩٧٣م – رمضان ١٣٩٣ هـ . إلا أنها كانت لقطة من الزمن، لم يشأ أصحابها أن يمدوها لأكثر من زمن الحرب، فعادت البلاد مرة أخرى إلى الترنح والتيه والفشل.

هذه هى معادلة النجاح في المنطقة العربية..العمل الجاد، والقلب الموصول بالله، وكلاهما لابد أن يكون مبنيا على فهم (صحيح) للإسلام، يؤمن بالعلم ويفهم متغيرات العصر..إسلام وسطي معتدل..لا انحلال ولا مغالاة.

* * *